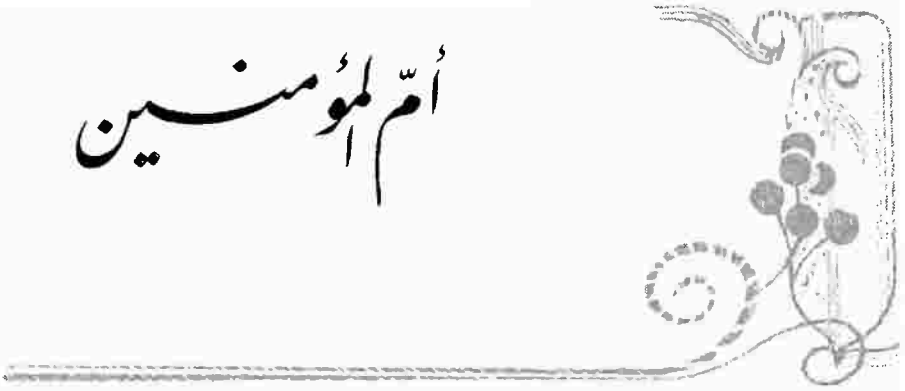

أمّ المؤمنين

تَجلَّتْ حكمةُ سيدنا رسول الله ﷺ حين قرَّر الزواجَ من أم حبيبة بنت سفيان رضي الله عنها تجلّت فيما تجلت في نقطتين مهمتين؛ النقطة الأولى تقديرُهُ لهذه المؤمنة المهاجرة التي فَرَّتْ بدينها إلى الحبشة ورعايتُه لها ومواساتُها بعدما انتهى زوجُها إلى نهايته الأليمة المفجعة وأصبحتِ امرأةً أيّم في كنفها بنتٌ يتيمة. والنقطة الثانية أن هذه المرأة هي ابنةُ أبي سفيان الزعيم القرشيّ الفذ، والسيدِ الأمويّ المطاع، الذي لا يزال يُناصب الدعوةَ الإسلامية العداء، والذي يرجو رسولُ الله ﷺ أن يَهْدِيَ الله قلبَهُ للإيمان فيكسَبُ به الإسلامُ عنصراً قوياً وعقلاً راجحاً وسيّداً مطاعاً مؤثراً في قريش. **وقد وَرَدَ أنّ قولَ الله سبحانه وتعالى: ﴿عسى الله أنْ يجعلَ بينكم وبين الذين عادَيْتُم منهم مودّة، والله قدير، والله غفورٌ رحيم﴾**[1] **نَزَلَ في أبي سفيان عندما تزوّج رسولُ الله ﷺ ابنتَه (أمَّ حبيبة)** فأنشأ هذا الزواج مودةً بينهما أفضت إلى إسلام أبي سفيان عند فتح مكة فيما بعد. ومما يؤيد هذا الاتجاه في سببِ نزول هذه الآية أنّ أبا سفيَان حينَ بَلَغَهُ خبرُ زواج ابنته (أمِّ حبيبة) من رسولِ الله ﷺ وكان لا يزال على شركه، لم يُمانعْ ولم يعترضْ، بل افتخَرَ بذلك وأثنى على رسول الله ﷺ فوصفه بقوله

(١) سورة الممتحنة: الآية ٧.

(ذلك الفحل لا يُقْرَعُ أنفُه) أي أنّ هذا الرجلَ العظيم ـ ويعني رسولَ الله ـ لا يُرَدُّ إن رَغِب في الزواج من أية امرأة. . .

ونعود الآن إلى الحبشة لنشهد **وقائعَ عَقْدِ قِران السيدةِ أمِّ حبيبة بنت أبي سفيانِ رضي الله عنها على رسول الله ﷺ الذي تمّ في رحاب القصر الملكي وما يَتبع ذلك من خطوات؛**

فقد أقام النجاشيُّ ملكُ الحبشة المؤمنُ آنذاك حفلاً كبيراً بهذه المناسبة، دعا إليه جميعَ مَنْ كان في بلاده من المهاجرين المسلمين وعلى رأسهم نَقِيبهُم جعفرُ بنُ أبي طالب رضي الله عنه، ووكيلُ أمِّ حَبِيبة خالدُ بنُ سعيد بنِ العاص. . .

ووقف النجاشيُّ خطيباً وقال:

الحمد لله، الملكِ القدُّوس، السلام المؤمن المهيمن، العزيز الجبّار.

أَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلا الله وأنّ محمداً عبدُه ورسولُه الذي بَشَّرَ به عيسى بنُ مريم ﷺ.

أما بعد، فإنّ رسولَ ﷺ كَتَبَ أليّ أن أزوّجه (أمَّ حبيبةَ بنتَ أبي سفيان) فأَجَبْتُ إلى ما دعا إليه رسولُ الله، وقد أَصْدَقْتُها أربعَ مائةِ دينار. ثم سكب الدنانير بين يدي القوم.

فقام خالدُ بنُ سعيد بن العاص وكيلُ أم حَبيبة رضي الله عنهماوقال:

الْحمد لله، أحمده وأستعينه وأستنصره. وأشهدُ أَنْ لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً عبدُهُ ورسولُه. أرْسَلَهُ بالهدى ودينِ الحق لِيُظْهِرَه على الدينِ كلِّهِ ولو كَرِهَ المشركون.

أمـا بعد،

فقد أَجَبْتُ إلى ما دعا إليه رسولُ الله، وزوَّجْته (أمَّ حبيبة بنتَ أبي سفيان)

فباركَ الله رسول الله.

ودفع النجاشيُّ الدنانيرَ إلى خالد بن سعيد فَقَبَضَها.

ثم أراد المدعوون بعد ذلك أن يقوموا فقال لهم النجاشيُّ: **إجلسوا فإنّ سنَّةَ الأنبياء إذا تزوّجوا أَنْ يُؤكل طعامٌ على التزويج. فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرّقوا.**

قالت (أمُّ حبيبة): فلما وَصَلَ إليّ المال أرسلتُ إلى (أبرهة) جاريةِ النجاشي التي سبق أنْ بَشَّرَتْني فقلت لها:

إني كنت أعطيتُك ما أَعْطَيْتُك يومئذٍ ولا مالَ بيدي. فهذه خمسون مثقالاً ـ أي خمسين مثقالاً من الذهب ـ فخذيها فاستعيني بها.

فأبت أبرهة، وأخرجت حُقّاً فيه كلُّ ما كنتُ أَعْطَيْتُها، وقالت:

عَزَمَ علي المَلِك أن لا أَرْزَأَك شيئاً ـ أي أن لا أجعلك تخسرين بأخذِ أيِّ شيء منك ـ وأنا التي أقوم على ثيابه ودُهْنِهِ. وقد اتَّبَعْتُ دينَ محمدٍ رسولِ الله ﷺ، وأَسْلَمْت لله. وقد أَمَرَ الملِكُ نساءَه أن يَبْعَثْنَ إليك بكلِّ ما عندهنّ من العطر.

قالت (أُمُّ حبيبة): فلما كان الغد جاءَتْني (أبرهةُ) بعودٍ وورسٍ وعنبرٍ وزنادٍ كثير، فَقَدِمتُ بذلك كلِّه على النبي ﷺ فكان يراهُ عندي وعليَّ فلا يُنْكِرُه.

ثم قالت أبرهة: فحاجتي إليك يا أمَّ حبيبة أن تُقْرئي رسولَ اللهِ منّي السلام وتُعْلميهِ أنّي قد اتَّبَعْتُ دينَه.

قالت أمُّ حبيبةَ رضي الله عنها: ثم لَطَفَتْ بي، وكانت هي التي جَهَّزتني، وكانت كلَّما دَخَلَتْ عليّ تقول: لا تَنْسَيْ حاجتي إليك.

قالت أمُّ حبيبة: **فلما قَدِمْتُ على رسولِ الله ﷺ أخبرتُه كيف كانت**

الخِطبة، وما فَعَلَتْ بي (أبرهة)، فتبسَّم رسولُ الله ﷺ، وأَقْرَأْتُهُ منها السلام، فقال: وعليها السلامُ ورحمةُ الله وبركاته.

واستعدَّ المهاجرون المسلمون إلى الحبشة ومعهم (أمَّ حبيبة) رضي الله عنهم للعودة إلى دارِ الهجرة الجديدة في المدينة المنورة، وشكروا للنجاشيّ مَلِكَ الحبشة الذي هدى الله قلبَهُ للإيمان، شكروا له كرمَ ضيافته لهم، وحُسْنَ رعايته خلال إقامتهم على أرضه، وقام الملك بوداعهم خيرَ وداع وأرسلَ رُسُلَهُ ترافِقُهُم وتَحْرُسُهم حتى شاطىء البحر، وحَمَلَهم على سفينتين من سفنه الكبيرة شقَّتا بهم عُباب البحر إلى أن وصلوا إلى شاطىء الجزيرة العربية، فاستراحوا فيه قليلاً ثم يَمَّمُوا وجوهَهم وغَذُّوا المسير صَوْبَ المدينةِ المنورة، حيثُ الحقُّ، حيث النورُ، حيثُ نبيُّهم ومعلمهم وهاديهم، حيث إخوانُهم المجاهدون الأبرار، المهاجرون الذين أوذُوا في سبيل الله، والمؤمنون الذين آوَوْا رسولَ الله ﷺ ونصروا دعوتَه... لقد كانت قلوبُهم تسابق خطواتِهم شوقاً وتلهفاً إلى لقاءِ رسول الله ﷺ ورَبْعِهِ وديارِه... وكانت (أم حبيبة) رضي الله عنها لا تفترُ عن الدعاء إلى الله بأَنْ يَجْعَلَها عند حسن ظن رسولِ الله ﷺ بها، تَسُرُّ عينه، وتُطِيعُ أمره، وتُرْضِي قلبه، وأَنْ يُؤَهِّلَها لارتقاء سدةِ أمهات المؤمنين.

ووصل المسلمون العائدون من الحبشة بقيادة جعفر بن أبي طالب ومعهم (أمُّ حبيبة) إلى رحاب المدينة المنورة فاستقبلهم مَنْ كان فيها من أهلها بالتهليل والتكبير، والترحيب وآيات السرور... ثم استَقْبلوا جميعُهم رسولَ الله ﷺ يتقدمُ كتائبَ المهاجرين والأنصار عائدين ظافرين منصورين، بعدما أكرمهم الله بفتح خيبر وتطهيرها من اليهود وقد فرح رسول الله ﷺ بلقاء ابن عمه جعفر العائدِ من الحبشة وقال عليه الصلاة والسلام قولتَهُ العذبةَ التي تقطُرُ حلاوةً ورقةً وإنسانية:

ما أدري بأيّهما أُسَرُّ؟ بفتحِ خيبر أم بقدوم جعفر؟

أمّا (أم حبيبة) رضي الله عنها فقد أكرمها الله بلقيا أشرفِ الخلق أجمعين، والزواجِ من خاتم الأنبياء والمرسلين، والفوزِ بمحبته ورحمته ورضاه، والارتقاء إلى مصافّ أمهات المؤمنين.

وسَعِدَ المسلمون في المدينة تلك الليلة مهاجرين وأنصاراً وعائدين من الحبشة بوليمةٍ كبرى أقامها عثمانُ بنُ عفان رضي الله عنه على شرف زفاف ابنةِ عمتهِ أمّ حبيبة بنتِ أبي سفيان إلى رسول الله ﷺ.

أيها الإخوة والأخوات

لقد كانت حياةُ السيدة الجليلة أمِّ حبيبة بنتِ أبي سفيان منذ أكرمها الله بالإسلام حافلةً بالتضحية والصبر والفداء، والهجرةِ فراراً بالدين الحق، ثم بالهجرة إلى الله ورسوله، ثم ازدادت حياتُها نوراً وألَقاً وعطاءً منذ شاء الله سبحانه وتعالى أن يَجْعَلَها إحدى زوجات النبي عليه الصلاة والسلام فكانت مثلاً أعلى في حبِّها لرسول الله ﷺ، والتمسكِ بكتاب الله عزّ وجلّ، وحسنِ التلقي والتعلم والوعي عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، ومحاسبةِ نفسها حتى الرمق الأخير؛

فحينما نقض بنو بكر حلفاءُ المشركين في مكة شروطَ صلح الحديبية باعتدائهم على بني خزاعة حلفاءِ المسلمين في المدينة أيقنت قريشٌ بأنّ محمداً بنَ عبدالله وصحبَهُ لن يسكتوا حيالَ هذا النقض، ولن يتركوا هذا الاعتداء يمرُّ عابراً **وأجمعتْ قريشٌ على انتداب زعيمها أبي سفيان للذهاب إلى المدينة للاعتذار عمّا فعل بنو بكر وتهدئةِ الأحوال وتطييبِ الخواطر.**

وتوجّه أبو سفيان إلى المدينة، وظنَّ أن أقربَ طريقٍ له إلى رسول اللهِ ﷺ هو ابنتُهُ (أمُّ حُبيبة)، فذهب إليها.

وفوجئت (أمُّ حبيبة) بأبي سفيان أبيها في بيتها وقد افترقا منذ أكثر من عشر

سنوات، فارتبكتْ في نفسها واحتارتْ في أمرها.

وأدرك أبو سفيان ما تعانيه ابنتُهُ من خلال تلك المفاجأة من الحيرة والحرج والارتباك، وَجَلَس من تلقاء نفسه على فراشٍ ممدود على الأرض، وإذا (أمُّ حبيبة) تهتزُّ وتنتفض بعد أن تماسكت وهَدَأَ روعُها واستعادت رباطةَ جأشها، وتسارع إلى سَحْبِ الفراش من تحت أبيها وتطويه بعيداً !

ويُدْهَشُ أبو سفيان بل يُصْعَقُ من تصرفِ ابنته هذا ويبادرها بالقول:

أطويتِهِ ـ يا بنيّة ـ رغبةً بي عن الفراش، أم رغبةً بالفراش عني؟

فتجيبَهُ بحَزْمٍ ودون تردد:

بل هو فراشُ رسول الله ﷺ، وأنت امرؤٌ مشركٌ نَجِسٌ، فلم أحبَّ أن تجلس عليه !

وكان جوابُها الجازمُ الحازمُ القاطعُ هذا كالنازلةِ تَنْزِلُ على عقله وقلبه، فقال لها والألمُ يعتصِره، والخِزيُ يلفُّ مشاعره:

لقد أصابك يا بنيّةُ بعدي شرّ. **فأجابته بحزمٍ وجزمٍ وثقةٍ مرةً أخرى وقالت:**

بل أصابني كلُّ الخير أَنْ هُدِيتُ للإيمان ونَعِمْت بالإسلام.

كانت أمُّ حبيبة كما قلنا قارئة كاتبة واعية حافظةً عالمة، وقد رَوَتْ عن رسول الله ﷺ أكثرَ من ستين حديثاً؛ من ذلك؛

قولُها: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **(لا يحلُّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تَحُدَّ على مَيّتٍ فوق ثلاث، إلّا على زوج أربعة أشهر وعشرا).**

وقولُها: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: **(مَنْ صلى اثنتي عشرة ركعةً في يومه وليلته بُنِيَ له قصرٌ في الجنّة).**

قالت أم حبيبة؛ فما تركتُهنَّ منذ سمعتُهُنَّ من رسولِ الله ﷺ.

كانت رضي الله عنها كثيرةَ الخوف من ربّها شديدةَ المحاسبة لنفسها حتى في أمور الحياة العادية الصغيرة وإلى آخر لحظات حياتها؛

قالت (عائشةُ) أم المؤمنين رضي الله عنها:

دَعَتْني (أم حَبِيبةَ) عند موتِها فقالت:

قد يكون بيننا ما يكون بين الضرائر، فغَفَرَ الله لي ولك ما كان من ذلك.

فقلت:

غَفَرَ الله لكِ ذلك كُلَّه، وتجاوز، وَحَلَّكِ من ذلك.

فقالت أمّ حبيبة.

سررتني ـ يا عائشة ـ سرَّك الله.

ثم أسلمت بعد ذلك روحَها راضيةً مرضيةً لله رب العالمين.

سيماهم في وجوههم

يقول رسولُ الله ﷺ في الحديث الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه: **(يَنْزِلُ ربُّنا تبارك وتعالى كلّ ليلة إلى السماء الدنيا حين يَبْقى ثلثُ الليل الآخِر يقول: مَنْ يدعوني فأستجيبَ له ؟ مَنْ يسألني فأعطيه ؟ مَنْ يستغفرني فأغفرَ له ؟)**.

ويقول عليه السلام في الحديث الذي يرويه عمروّ بن عنبسة رضي الله عنه: **(أقرب ما يكون الربُّ من العبد في جوفِ الليل الآخر، فإن استطعتَ أن تكون ممن يَذْكُرُ الله في تلك الساعةِ فكن)**.

هذا إذن موعدٌ ثابت مع الله جلّ جلاله هو جوفُ الليل الآخر. وهذه دعوةٌ متجددةٌ من الله سبحانه وتعالى إلى عباده المؤمنين يستجيبُ فيها لمن يدعونه، ويعطي فيها من يسألونه، ويغفر فيها لمن يستغفرونه، ويذكر فيها من يذكرونه... فهل رأيتم عطاءً أعظم من هذا العطاء ؟ وفضلاً أكبرَ من هذا الفضل ؟ ورحمةً أوسع من هذه الرحمة ؟..

الكريمُ المنّان، المعطي الوهّاب، الرحيمُ الرحمن، الودودُ الحنان، السلامُ الغفار، ذو الجلال والإكرام يَنْزِلُ إلى السماء الدنيا ليستقبلَ عباده التائبين

الآيبين المنيبين بالعفو والرحمة، والقبولِ والمغفرة؛ والرضى والقرب. . . فيا فوز المستغفرين، ويا نُجحَ السائلين، ويا سعادةَ التائبين المنيبين.

● **يقول الحسن البصريُّ يرحمه الله في تفسيرِ قوله تعالى: ﴿والذين يَبيتون لربّهم سجداً وقياماً﴾** ينتصبون لله على أقدامِهم ويفترشون وجوهَهم سُجّداً لربّهم تجري دموعُهم على خدودِهم خوفاً من ربّهم.

ويقول يرحمه الله:

لقد صَحِبْتُ أقواماً يَبيتون لربّهم في سِوادِ هذا الليل سجّداً وقياماً. يقومون هذا الليل على أطرافهم، تَسِيْلُ دموعُهم على خدودِهم، فمرّةً رُكَّعاً ومرةً سُجّداً يُناجون ربَّهم في فِكاكِ رقابهم، لم يَمَلُّوا طولَ السهر لِما خالَطَ قلوبَهم من حُسْنِ الرجاء في يومِ المرجع فأصبح القومُ بما أصابوا من التعب لله في أبدانهم فرحين، وبما يأمُلُونَ من حُسْنِ ثوابه مستبشرين، فَرَحِمَ الله امرءاً نافسهم في مثلِ هذه الأعمال، ولم يَرْضَ لنفسِهِ مِنْ نفسِهِ بالتقصير في أمره، واليسيرِ من فعله فإنّ الدنيا عن أهلِها منقطعة، والأعمالُ على أهلِها مردودة.

● **وكان عليٌّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه يناجي ربّه جلّ جلاله ويقول:**

لبيك لبيك أنت مولاه ... فارحم عُبيداً إليك ملجاه
يا ذا المعالي عليك معتمدي ... طوبى لمن كنتَ أنت مولاه
طوبى لمن كان نادماً أرقاً ... يشكو إلى ذي الجلال بلواه
وما به عِلّةٌ ولا سَقَمٌ ... أكثرُ من حُبِّه لمولاه
إذا خلا في الظلام مبتهلاً ... أجابه الله، ثمّ، لبَّاه
سألتَ عبدي وأنت في كنفي ... وكلُّ ما قلت قد سمعناه
صوتُك تشتاقه ملائكتي ... فَذَنْبُك الآن قد غفرناه
في جنّةِ الخلدِ ما تمنّاه ... طوباه طوباه، ثم طوباه
سلني بلا خشيةٍ ولا ضجر ... ولا تخفْ إنني أنا الله

● **وكانت رابعةُ العدوية رحمها الله كثيراً ما تدعو بهذه الدعوات وهي ساجـدةٌ في صلاة الليل:**

يا إلهي لقد أنارت النجوم، ونامت العيون، وغلّقت الملوكُ أبوابَها، وخلا كلُّ حبيب بحبيبه، وبَقِيَتْ رابعةُ الخاطئةُ بين يديك، فلعلّك تنظرُ إليها نظرةً تمنعُها بها عن النوم في مناجاتك. وعزتِك وجلالِك لا أنامُ عن استغفارك، والتضرع إليك، وتوحيدِك وتسبيحكِ وذكرِك في ليلٍ أو نهار إلّا غَلَبَةً حتى ألقاك.

يا إلهي ما أصغيتُ إلى صوتِ حيوان ولا حفيفِ شجر، ولا خرير ماء، ولا ترنُّم طائر، ولا تنعُّم ظل، ولا دويّ ريح، ولا قعقعةِ رعد، إلّا وَجَدْتُها شاهدةً بوحدانيتِك، دالّةً على أنّه ليس كمثلك شيء.

سيدي بك تقرّب المتقرِّبُون في الخلوات، ولعظمتِكَ سبَّحتِ الحيتان في البحار الزاخرات، ولجلالِ قدسك تصافقت الأمواجُ المتلاطمات...

أنت الذي سَجَد لك سوادُ الليل، وضوءُ النّهار، والفَلَكُ الدوّار، والبحرُ الزخّار، والقمرُ النوّار، والنجمُ الزهّار، وكلُّ شيءٍ عندك بمقدار لأنّك العليُّ القهار.

● **وكانت رابعة العدوية رحمها الله كثيراً ما تناجي ربّها عزّ وجلّ بهذه الأبيات:**

يـا سروري ومنيتي وعمـادي ... وأنـيسـي وَعُـدَّتي ومُـرادي
أنت روحُ الحياة أنت رجائي ... أنت لي مؤنسٌ وشوقُك زادي
أنت لولاك يا حياتي وأُنسي ... مـا تشتتُّ في فسيحِ البـلاد
كم بَدَتْ منَّةٌ وكم لك عندي ... من عـطاء ونعمـةٍ وأيَـادي
حبُّـك الآنَ بُغْيتي ونعيمي ... وجـلاءٌ لعين قلبي الصـادي

ليس لي عنك ما حَييت بَراحٌ أنت منّي مُمَكَّنٌ في السوادِ
إن تكنْ راضياً عليَّ فإنّي يا مُنىٰ القلبِ قد بدا إسعادي

● **وكانت رابعةُ العدوية رحمها الله إذا ما اقترب الفجر بعد قيامها الليل كثيراً ما تقول:**

إلهي هذا الليلُ قد أدبر، وهذا النّهار قد أسفر، فيا لَهْفَ نفسي أَقَبِلْتَ مني يا ربي ليلتي فأهنَّا أم رَدَدْتَها عليّ فأُعزّى. وعزتِك وجلالِك هذا دأبي ما أحييتني. وعزتِك وجلالِك لو طَرَدْتَني عن بابك ما بَرِحْتُ عنه، لِما وَقَعَ في قلبي من محبتِك.

● **وقال عُمَرُ بنُ ذر:**

لما رأى العابدون الليل قد هَجَمَ عليهم ونظروا إلى أهلِ الغفلة قد سكنوا إلى فُرُشهم وَرَجَعوا إلى ملاذِّهم من النوم قاموا إلى الله فرحين مستبشرين بما قد وَهَبَ لهم من حسنِ عادةِ السهر وطول التهجد. فاستقبلوا الليل بأبدانهم وباشروا الأرض بصِفاح وجوههم، فانقضى عنهم الليلُ وما انقضت لذتهم من التلاوة ولا مَلَّت أبدانُهم من طولِ العبادة... فأَعْمِلوا أنفسَكم رحمكم الله في هذا الليل وسوادِه فإنّ المغبون من غُبِن خيرَ النهار والليل. والمحروم مَنْ حُرِم خَيْرَهما. وإنما جُعلا سبيلاً للمؤمنين إلى طاعة ربّهم، وَوَبالاً على الآخرين للغفلةِ عن أنفسهم، فأَحْيُوا أنفسَكم بذكر الله، فإنّما تَحْيَى القلوبُ بذكر الله. كم من قائمٍ لله في هذا الليل قد اغتبط بقيامِهِ في ظلمةِ حفرته. وكم من نائمٍ في هذا الليل قد نَدِمَ على طول نومه عندما يَرَىٰ من كرامةِ الله للعابدين غداً. فاغتنموا ممرَّ الساعاتِ والليالي والأيامِ رحمكم الله.

● **وكان عبدالله بن مسعود رضي الله عنه يقول:**

ينبغي للمؤمن أنْ يُعْرَفَ بقيام ليله إذِ الناسُ نائمون، وبصيامِ نهاره إذِ

الناسُ مفطرون، وَبحزنِهِ إذ الناسُ يَفْرحون، وبخشوعه إذِ الناسُ يختالون، وبِوَرِعه إذ الناس يَخْلِطون، وبصمتِهِ إذ الناسُ يخوضون، وببكائِهِ إذ الناسُ يضحكون.

● **وقد فسّر الضحاك قولَ الله سبحانه وتعالى: ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾** فقال: كان رجالٌ يُصَلُّون فإذا أصبحوا رُئِي سهومُ ذلك في وجوههم.

● **وفسّره عطية العَوْفي** بأنّ موضعَ السجودِ من وجوههم يكون أشدّ بياضاً من وجوهِهم يوم القيامة.

● **وقال ابن عباس رضي الله عنهما:** ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾ هو بياضٌ يَغْشى وجوهَهم يومَ القيامة.

● **ومن أحاديثه عليه الصلاة والسلام** ما رواه أبو أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

(عليكم بقيامِ الليل فإنّه دأْبُ الصالحين قَبْلَكُم وهو قربةٌ إلى ربكم، ومَكْفَرةٌ للسيئات، ومَنْهَاةٌ عن الإثم).

وما رواه أبو هريرة رضي الله عنه حيث قال: قال رسول الله ﷺ:

(رَحِمَ الله رجلاً قام من الليل فصلّى وأيقظَ امرأته فصلّت فإن أَبَتْ نَضَحَ في وجهها الماء. ورَحِمَ الله امرأةً قامت من الليل فصلَّت وأيقظت زوجَها فصلى فإنْ أبى نَضَحَتْ في وجهه الماء).

وما رواه جابرٌ رضي الله عنه حيث قال: قال رسول الله ﷺ:

(إنّ في الليل لساعةً لا يوافقُها عبدٌ مسلم يَسْأَلُ الله تعالى فيها خيراً من أمرِ الدنيا والآخرة إلّا أعطاه الله إياه وذلك في كلِّ ليلة).

وبعـــد،

يا أخي المسلم ويا أختي المسلمة

إنّ من حقّ أنفسنا علينا أن لا يفوتَنا هذا الخيرُ الكبير وأن لا تَضِيعَ علينا هذه الفرصةُ اليومية النفيسةُ المتجددة.

وإذا كان قيامُ الليل صعبَ التحقيق في كلِّ يوم، فإنه ليس صعب الحصول مرة أو مرتين كلَّ أسبوع.

فلنشمّر عن ساعد الجدّ والعزم وَلْنُقْبلْ على اللهِ سبحانه وتعالى، وَلْنَقِفْ بين يديه في ثلث الليل الآخر تائبين مستغفرين، صادقين منيبين، سائلين داعين، ذلك أنّ العمر محدود، والشبابَ زائل، ولا تدري نفسٌ ماذا تكسِب غداً ولا تدري نفس بأي أرض تموت.

كتاب أنزلناه

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

﴿إنّ هذا القرآن يَهْدي للتي هي أقوم ويُبشّرُ المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنّ لهم أجراً كبيراً، وأنّ الذين لا يؤمنون بالآخرةَ أَعْتَدْنا لهم عذاباً أليماً﴾(١).

ويقول جلّ جلاله:

﴿وَنُنَزِّلُ من القرآنِ ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين ولا يَزِيدُ الظالمين إلاّ خساراً﴾(٢).

ويقول سبحانه وتعالى؛

﴿كتابٌ أنزلناه إليك مبارك ليدَّبَّروا آياته وَلِيَتَذَكَّرَ أولوا الألباب﴾(٣).

القرآن الكريم ـ أيها الإخوة والأخوات ـ كتابُ اللهِ المحكم إلى عباده،

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٩ ـ ١٠.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٨٢.

(٣) سورة ص: الآية ٢٩.

وهو دستور المسلم ومنهاجه في كل شؤونه وقضاياه، أنزله الله سبحانه وتعالى هدايةً للمؤمنين الذين يطبّقون أحكامه، ويلتزمون بأوامره ونواهيه في هذه الحياة الدنيا، وبُشرى لهم بالأجر الكبير، والفوز العظيم في الدار الآخرة. ونزّله كذلك شفاءً وعافية وبَحبوحة ونَصْراً وقوةً وسبقاً، لهؤلاء المؤمنين الصادقين الملتزمين على كلِّ صعيد وفي كل ميدان.

أما الطريقُ إلى الانتفاع بالقرآن العظيم فيبدأ بتعلم قراءته وتلاوته، ثم تَفَهُّمِ معانيه وتـدبر أحكامه، ثم العملِ بتعاليمه والالتزام بتوجيهاتـه، ثم مصاحبته ومرافقتِهِ في الليل والنهار، في الصلاة وخارج الصلاة، في الوحدة مع النفس، أو عند الاجتماع بالآخرين، في الحلّ والترحال، في ساعاتِ الفراغ وفي أيام العمل، في الرخاء والشدة، في الصحة والمرض؛ **تلاوةً واستذكاراً وحفظاً، واستماعاً وتعلماً وتعليماً وبياناً**. . . و في كلّ حالٍ من أحوالِ احتفالِ المسلم بالقرآن والعنايةِ به أجرٌ ومثوبةٌ ورفعةٌ في الدنيا، ودرجات وحسنات في الآخرة.

فَعَنِ البَراء بن مالك رضي الله عنه قال: **قال: رسول الله ﷺ: (زيِّنوا القرآنَ بأصواتكم)** وفي رواية **(زيِّنوا أصواتَكم بالقرآن)**.

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: **قال رسول الله ﷺ: (مَنْ قَرَأَ حرفاً من كتابِ الله فَلَهُ به حسنة. والحسنةُ بعشر أمثالِها. لا أقول: ألم حرف ـ لكن ـ ألفٌ حرف ولامٌ حرف وميمٌ حرف)**.

وفي الاستماع إلى القرآن وحسن الإصغاء عبادةٌ ومثوبة، ورحمةٌ وبشرى بالنورِ التام يومَ القيامة؛

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأَنْصِتوا لعلكم ترحمون﴾[1].

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٠٤.

ويقول رسولُ الله ﷺ في الحديث الذي يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه **(من استمع إلى آيةٍ من كتابِ الله كتِبت له حسنةً مضاعفة، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة)**.

وَقَدْ رَوَىٰ أبو سعيدٍ الخدريُّ رضي الله عنه قال: **جلست في عصابة من ضعفاء المهاجرين وفقرائهم ـ يعني بهم أهل الصفّة ـ وقارئٌ يقرأ علينا إذ جاء رسولُ الله ﷺ، فسكت القارىء، فسلَّم رسول الله ﷺ ثم قال: ما كنتم تصنعون ؟ قلنا: كنّا نستمع يا رسولَ الله إلى كتاب الله. فقال رسول الله ﷺ: الحمد لله الذي جَعَلَ مِنْ أمتي مَنْ أُمِرْت أنْ أَصْبِرَ نفسي معهم. قال أبو سعيد: فجلس رسولُ الله ﷺ وَسْطَنا لِيَعْدِلَ بنفسه فينا ثم قال بيده هكذا فتحلَّقوا وبَرَزَتْ وجوهُهم فقال: (أبشروا يا مَعْشَرَ فقراء المهاجرين بالنورِ التامّ يومَ القيامة)**.

وقد حث الإسلام على تَعَلُّم القرآن وتعليمِهِ واعتبر أهلَ القرآن في الذروة من الناس، وأنّ حاملَ القرآن يحمل أمجدَ راية، ويمتلك أعظم رصيد من العلم؛

فقد قال رسول الله ﷺ: **(خيرُكم من تَعَلّم القرآن وعلَّمه)**.

وقال عليه الصلاة والسلام: **(أهلُ القرآن أهلُ الله وخاصَّتُه)**.

وقال عبدالله بنُ مسعود رضي الله عنه: **(إذا أردتم العلم فانثروا القرآن فإنّ فيه علمَ الأولين والآخرين)**.

وقال أبو هريرة: رضي الله عنه: **(إن البيتَ الذي يُتْلى فيه القرآن اتّسع بأهله، وكَثُرَ خيرُه، وحَضَرَتْهُ الملائكة، وخَرَجَتْ منه الشياطين. وإنَّ البيتَ الذي لا يتلى فيه كتابُ الله عزّ وجلّ ضاق بأهله، وقَلَّ خيرُهُ، وخَرَجَتْ منه الملائكةَ، وحضرتْه الشياطين)**.

وقال الفضيل بن عِياض رحمه الله: **(حاملُ القرآن حاملُ راية الإسلام فلا ينبغي أن يلهوَ مَعَ مَنْ يلهو، ولا أنْ يَسْهُوَ مع مَنْ يسهو، ولا أنْ يَلْغُوَ مع مَنْ يَلغو، تعظيماً لحق القرآن)**.

وقال الحسن البصري رحمه الله: **(واللهِ ما دون القرآن من غِنى، ولا بَعْدَه من فاقة)**.

ونتوقف الآن أيها الإخوة والأخوات عند تدبُّر آيات القرآن وتذكُّر مراميها ومقاصدها من خلالِ قول الله عز وجل: ﴿كتابٌ أنزلناه إليك مبارك لِيَدَّبَّروا آياته وليتذكّر أولوا الألباب﴾ لنتعرفَ على فِعْلِ الرسول عليه الصلاة وهديه ومنهاجه في هذا الميدان.

يقول عَوْفُ بنُ مالك رضي الله عنه: قُمْتُ مع النبي ﷺ ليلةً فقام فقرأ سورة البقرة لا يمرُّ بآية رحمة إلا وقَفَ وسأل، ولا يمرُّ بآيةِ عذاب إلّا وَقَفَ وتعوذ.

ويقول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: قال لي رسول الله ﷺ: اقرأْ علي - أيْ من القرآن - قلت: يا رسولَ الله أقرأُ عليك وعليك أنزل؟ فقال عليه الصلاة والسلام: إنّي أحبُّ أن أسمعَهُ من غيري.

فقرأتُ سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿فكيفَ إذا جئنا من كلِّ أمةٍ بشهيد وجِئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾. فقال عليه الصلاة والسلام: حَسْبُكَ الآن، فالتفتُّ إليه فإذا عيناه تذرفان.

ويقول الإمام الغزالي رحمه الله:

إذا تأمّل القارىء ما في كتاب الله عزّ وجلّ من التهديدِ والوعيد، والمواثيق والعهود، ثم تأمّل تقصيرَه في أوامرِهِ وزواجره، فَسَيَحْزَنُ ويبكي لا محالة، فإنْ لم يَحْضُرْهُ حُزْنٌ وبكاء كما يَحْضُرُ أربابَ القلوب الصافية، فَلْيَبْكِ على فقدِ

الحزن والبكاء فإنّ ذلك أعظمُ المصائب.

ويقــول:

درجات القرّاء ثلاث:

أدناها أن يُقَدّر العبدُ كأنّه يقرؤه على الله عزّ وجلّ واقفاً بين يديه وهو ناظر إليه ومستمعٌ منه، فيكون حالُ العبد عند هذا التقدير السؤالَ والتضرعَ والابتهال.

والثانية أَنْ يَشْهَدَ بقلبه كأنّ الله عزّ وجلّ يراه ويخاطبُه بألطافه، ويناجيه بإنعامه وإحسانه، فمقامُ العبد هنا الحياءُ والتعظيم والإصغاء.

والثالثة أن يَرَىٰ القارىء في الكلامِ المتكلم، وفي الكلماتِ الصفات فلا ينظر القارىء عند ذلك إلى نفسه ولا إلى قراءته، بل يكون مقصورَ الهمّ على المتكلم جَلّ جلاله، موقوفَ الفكر عليه، كأنّه مستغرقٌ بمشاهدة المتكلمِ عن غَيره، وهذه درجة المقربين.

أيها الإخوة والأخوات

نحن مدعوون أفراداً وجماعات رجالاً ونساءً وشباباً وأطفالاً إلى القرآن ومجالسِهِ لِنَحْمِلَه ونصبح من أهله.

مدعوون لأن نعلِّم أطفالنا تلاوتَه وتجويدَه وحفظَ ما تيسّر منه، وأن نحثهم على ذلك ونُرَغِبَهم في ذلك بكلِّ الوسائل.

مدعوون إلى فَهمِ معانيه ومعرفةِ مراميه وتطبيقِ أحكامه... مدعوون إلى ذلك رجالاً ونساءً وشباباً. وفي هذا الإطار يقولُ رسول الله ﷺ في الحديث الذي يرويه عنه أبو ذرٍ الغفاريّ رضي الله عنه: (**إنّ الله خَتَمَ سورةَ البقرة بآيتين أعطانيهما من كنزِهِ الذي تحت العرش فتعلّموهن، وعَلِّموهنّ نساءَكم وأبناءَكم فإنها صلاةٌ وقرآنٌ ودعاء**).

نحن مدعوون إلى أَنْ نَجْعَلَ القرآن العظيم المنار الذي نستضيء بنوره في كل قضايانا الأسريةِ والاجتماعيةِ والاقتصاديـة والثقافيةِ في هذه الدنيا، وأَنْ يكون الحبلَ المتينَ الذي نستعصم به عندما نلقى الله سبحانه وتعالى فنفوز بجنته ورضوانه.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

(ما اجتمع قومٌ في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلاّ نَزَلَتْ عليهم السكينة، وغشِيَتْهُمُ الرحمة، وَحَفَّتْهم الملائكة، وذَكَرَهم الله فيمَنْ عنده).

وعن أبي ذرٍّ الغفاري رضي الله عنه، قال: قلت يا رسولَ الله أوصني. قال: (عليك بتقوى الله فإنه رأسُ الأمرِ كلِّه). قلت: يا رسولَ الله زدني قال: (عليك بتلاوة القرآن فإنه نورٌ لك في الأرض وذُخْرٌ لك في السماء).

وبعـد،

فقد أنزل الله القرآن ربيعاً للقلوب وشفاءً للصدور ونوراً للعقول وحافزاً إلى التقدم والارتقاء.

أنزل الله القرآن مِشعلاً للعلم النافع، ومناراً للخُلُق الـرفيع، وبنـاءً للمجتمع الفاضل.

أنزل الله القرآن، حياةً للفرد، ونظاماً للدولة، ومجداً للأمة.

أنزل الله القرآن ليسعد به المؤمنون في الدنيا، ويفوزوا به الفوز العظيمَ في الآخرة ﴿يوم لا يُخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يَسْعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربَّنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير﴾[1].

---

(١) سورة التحريم: الآية ٨.

وصدق الشاعر العربي حيث يقول:

قد حوى القرآنُ نوراً وهدى ... فعصى القرآنَ مَنْ لا يَعْقِل
قل لقومٍ نبذوا أحكامه ... ما لكم مما نبذتم بَدَلُ
فاسألوا التاريخ عن قرآنكم ... يوم ضاءت بسناه السبل
فكأنّ الكونَ أفقٌ أنتمُ ... فيه بدرٌ كاملٌ لا يأفُلُ
وكأنَّ الكونَ فيكم روضةٌ ... وعلى الأغصانِ أنتم بلبلُ

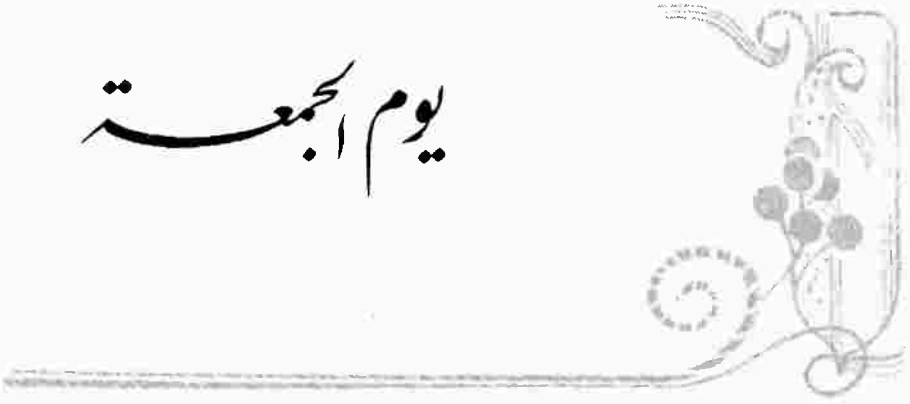

يوم الجمعة

يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسْعَوْا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون. فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾[1].

هذا نداء من الحق سبحانه وتعالى إلى عباده المؤمنين من الرجال ودعوةٌ تتجدد كل أسبوع بالتوجه إلى صلاة الجمعة عندما يؤذَّنُ لها أن يتركوا كلّ ما يشغلهم عنها من بيع وشراء وتجارة وغيرها، ففي ذلك الخير الكبير. فإذا انتهت الصلاةُ فلينتشروا في الأرض وليعودوا إلى بيعهم وشرائهم وتجاراتهم الأخرى يبتغون من خلالها الفضلَ والرزق من الله وَلْيذكروا الله كثيراً وهم ينشطون في أمور دنياهم كما ذكروه في صلاة الجمعة ليكونوا من المفلحين في حياتهم الدنيا، الفائزين بجنة الله ورضوانه في الدار الآخرة.

والجمعة ـ أيها الإخوة والأخوات ـ اسم مشتق من الجَمْع والاجتماع فإنّ أهل الإسلام يجتمعون فيه في كل أسبوع مرةً للصلاة في الجوامع الكبيرة. وفي

---

(١) سورة الجمعة: الآية ٩ ـ ١٠.

الحديث الذي رواه سلمانُ الفارسيُّ رضي الله عنه: **قال لي أبو القاسم ـ يعني رسولَ الله ﷺ ـ : يا سلمان ما يومُ الجمعة ؟ قلت: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله ﷺ: يوم الجمعة يومٌ جَمَعَ الله فيه أبويكم ـ يعني آدم وحوّاء عليهما السلام.**

وقد ذَكَرَ أصحاب السير أنَّ النبي ﷺ لمّا هاجر من مكة سار ومعه أبو بكر رضي الله عنه واختفيا في غار ثور ثلاثَ ليال ثم سارا ومعهما دليلٌ حتى وصلوا قُباء فَنَزَلَ عند بني عمرو بن عوف **وارتحل عنهم يومَ الجمعة فأدركته وهو في مَحَلّةِ بني سالم بن عوف وقد اتَّخذوا مسجداً فجمّع فيه النبيُّ ﷺ وخطب.**

والحكمةُ في مشروعيةِ الجمعة أنّ الله خلق الخلق في سبعة أيام وجعل بني آدم أشرفَ المخلوقات لِما مَيّزهم به من العقل والنطق وجمال الخلقة واعتدال القامة، فأمرهم بالاجتماع في الأسبوع يوماً يذكرون الله تعالى فيه ويشكرونه؛ فقالت اليهود: هو يومُ السبت لأنه يومٌ فَرَغَ الله فيه من خلق الأشياء. وقالت النصارى: هو يوم الأحد لأنه يومٌ بدأ الله سبحانه في إنشاء الخلق فيه. **وَهَدَى الله نبيه محمداً ليوم الجمعة لأنّه يومٌ يتجلّى الله فيه لعباده في جنّته كلَّ سبعةِ أيام وَيَمُدُّ لهم موائدَ نِعَمِهِ ويكسوهم أنواعَ الثياب. فكُلُّ مَنْ كان أبكرَ في المجيء إلى الصلاة وأقرب إلى الإمام كان أرفع درجةً في تلك الحضرة وأوفرَ حظاً في كرامة الله تعالى.**

وقد قال رسولُ الله ﷺ في تفسير قول الله عزّ وجلّ ﴿والسماءِ ذات البروج. واليومِ الموعود. وشاهدٍ ومشهود﴾. قال: **(اليومُ الموعود يوم القيامة واليومُ المشهود يومُ عرفة. والشاهد هو يومُ الجمعة يَشْهَدُ لمن يعمل فيه. وما طلعت الشمسُ ولا غربتْ على يومٍ أفضلَ منه. فيه ساعةٌ لا يوافقها عبدٌ مؤمن يدعو الله بخير إلا استجاب الله له. ولا يستعيذُ من شيء إلا أعاذه منه).**

ويروي أبو لبابة رضي الله عنه حديثاً شريفاً يبين بعض الأسباب الأخرى

التي فَضَّل الله بها يومَ الجمعة عن باقي الأيام يقولُ فيه عليه الصلاة والسلام: (**إنّ يومَ الجمعة سيّدَ الأيام وأعظمُها عند الله، وهو أعظمُ عند الله من يوم الأضحى ويوم الفطر، فيه خمسُ خلال: خَلَق الله فيه آدم، وأهبط الله فيه آدمَ إلى الأرض، وفيه تَوَفّى الله آدم، وفيه ساعةٌ لا يَسألُ اللّهَ العبدُ فيها شيئاً إلّا أعطاه الله إياه ما لم يسألْ حراماً، وفيه تقومُ الساعة. ما مِنْ مَلَكٍ مقرب ولا سماءٍ ولا أرض ولا رياحٍ ولا جبال ولا بحرٍ إلّا وهن يشفقن من يوم الجمعة**).

وعن أبي بُريدةَ بن أبي موسى قال: سمعت أبي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول في شأنِ ساعة الجمعة ـ أي التي يُجيب الله فيها الدعاء ـ (**هي ما بين أَنْ يَجْلِسَ الإمامُ أي يرقى المنبر إلى أن تُقضى الصلاة**). وقد ذكر العلماء أن هذا الحديث هو أصحُّ حديث نبويٍ شريف ورد في تعيينِ ساعتها وتحديدِ موعدها.

وقد ورد في الحديث الذي رواه أَوْسٌ بنُ أوس الثقفي رضي الله عنه قولهُ عليه الصلاة والسلام: (**أكثروا عليّ من الصلاة في يوم الجمعة فإنَّ صلاتكم معروضةٌ عليّ. قالوا: يا رسول الله وكيف تُعْرَضُ صلاتنا عليك وقد أَرِمت ؟ ـ أي بليت ـ فقال: إنّ الله حرّم على الأرضِ أجسادَ الأنبياء**).

ومما ورد أيضاً في فضل يوم الجمعة ولَيلةِ الجمعة ما رواه الإمامُ البيهقي في سُننه الكبرى من أنّ رسول الله ﷺ قال: (**ما من مسلمٍ يموت يومَ الجمعة أو ليلةَ الجمعة إلّا وقاه الله فتنة القبر**) وفتنةُ القبر هي عذابُ القبر وسؤاله.

أمّا أهميةُ صلاة الجمعة وقيمتُها وعظيمُ ثوابها في ميزان الشرع فقد نَبَّهَنا إليها نبيُّنا عليه الصلاة والسلام في الكثير من تعاليمه ووصاياه من ذلك قولُه عليه الصلاة والسلام الذي يرويه طارق بن شهاب رضي الله عنه: (الجمعةُ حقٌّ واجبٌ على كلِّ مسلم في جماعة إلّا على أربعة عبد مملوك، أو امرأة، أو صبي أو مريض). **يقول ابن كثير رحمه الله**: وإنّما يؤمَرُ بحضور الجمعة الرجالُ

الأحرار دون العبيد والنساء والصبيان (ويُعْذرُ المسافر والمريض وَقَيّمُ المريض وما أشبه ذلك من الأعذار كما هو مقرر في كتب الفروع).

ومن ذلك قولُه عليه الصلاة والسلام:

(من غَسَلَ واغتسل يومَ الجمعة وَبكَرَ وابتكر ومشى ولم يركَبْ وَدَنا من الإمام ولم يَلْغُ ـ أي أنصت ولم يتكلمْ أو ينصرف عن الخُطبة بأي صارف ـ كان له بكل خطوة أجرُ سنةٍ صيامِها وقيامها).

وقولُه عليه الصلاة والسلام الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه:

(مَنِ اغتسل يومَ الجمعة غُسْلَ الجنابة ثم راح في الساعة الأولى فكأنّما قرّب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرّب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنّما قَرّب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنّما قَرّب دَجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنّما قرّب بيضة. فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر).

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **(تُبْعَثُ الملائكة على أبوابِ المساجد يومَ الجمعة يكتبون مجيء الناس، فإذا خَرَج الإمام ـ أي صعد المنبر ـ طويت الصحف، ورُفِعَتِ الإقلام).**

وقد توعّد رسول الله ﷺ الذين يتهاونون في صلاة الجمعة ويتخلّفون عن أدائها في مواعيدها متلهين بمشاغل الحياة الدنيا منشغلين بزخارفها وزينتها، فقد قال رسول الله ﷺ **(مَنْ تَرَكَ ثلاث جُمَع تهاوناً بها طَبَع الله على قلبه)** وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً: **(لينتهيَنَّ أقوامٌ عن وَدْعهم ـ تركهم ـ الجمعات، أو لَيَخْتمنَّ الله على قلوبهم)** وفي رواية أو **(لَيَطْمِسَنَّ الله على قلوبهم ثمّ ليكونُنَّ من الغافلين)** ونستخلص من هذا أن تاركَ صلاةِ الجمعة والعياذ بالله مفلسٌ في الدنيا

لأنه إنسانٌ غافل قد طبع الله على قلبه، مبلسٌ في الآخرة لأنه من الخاسرين؛ يقول الحقُّ تبارك وتعالى في وصف أمثال هؤلاء ﴿**أولئك الذين طَبَعَ الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون. لا جَرَمَ أنّهم في الآخرة هم الخاسرون**﴾[1].

كذلك فقد وَسَمَ رسولُ الله ﷺ تاركَ صلاة الجمعة بِسِمَةِ النفاق والعياذ بالله، والمنافقون في الدَّرْكِ الأسفل من النّار، فقد رَوَى الإمام الشافعي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ: (**من تَرَكَ الجمعة من غير ضرورة كُتِبَ منافقاً في كتاب لا يُمحى ولا يبدّل**) هذا إن لم يتب من ذنبِهِ هذا توبة نصوحاً.

كذلك فقد دعا رسول الله ﷺ على تارك صلاة الجمعة بأَنْ لا يَجْمَعَ الله شمله، وأن لا يبارك له في أمره، وَبَيّن أن أعماله كلّها لا تُقبل حتى يتوب؛ فقد رَوَى جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال:

خَطَبَنا رسول الله ﷺ فقال في خطبته:

(واعلموا أنّ الله افترض عليكم الجمعة في مقامي هذا في يومي هذا في شهري هذا من عامي هذا إلى يوم القيامة. فمن تركها في حياتي أو بعدي وله إمامٌ عادل أو جائر استخفافاً بها وجحوداً بها فلا جَمَعَ الله شمله، ولا بارك له في أمره. أَلَا ولا صلاةَ له، ألا ولا زكاةَ له، أَلَا ولا صومَ له، ولا برَّ له حتى يتوب. فمن تاب تاب الله عليه).

وبعـــد،

إذا كان يومُ الجمعة وصلاةُ الجمعة ـ يا أخي المسلم ـ على هذا القدر من الأهمية، وعلى هذا الجانب من الوزن والقيمة والاعتبار فَلْنُعِدَّ للمسألة عدتَها،

---

(١) سورة النحل: الآية ١٠٨ ـ ١٠٩.

فلا يطولَ بنا السهرُ مساءَ الخميس الذي هو ليلةُ الجمعة حتى نتمكن من أداء صلاة الفجر في جماعة ونقومَ من الليل قبل صلاة الفجر فَنَقِفَ بين يدي الله راكعين ساجدين مستغفرين تائبين سائلين الله سبحانه وتعالى أن يهدينا إلى سواء السبيل. . .

فإذا طلع يومُ الجمعة حَرِصنا أن لا نعمل فيه إلّا الخير، فنقرأ فيه ما تيسر من القرآن، ونُكْثِرَ فيه من الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام، ونتصدق على الفقراء والمساكين. ويدخل في هذا الميدان رعايةُ الأهل والأولاد وموانستُهم، وزيارةُ الأرحام، وتفقد الجيران قبلَ صلاة الجمعة أو بعدَها حسب ظروفنا وأحوالنا. . .

ثم نستعدُّ للذهاب إلى صلاة الجمعة مصطحبين معنا صبياننا الذين صاروا في سنّ التمييز وذلك لتعويدهم على الذهاب إلى صلاة الجمعة والمداومة عليها.

ويدخل في إطار الاستعداد لصلاة الجمعة تقَليمُ الأظافر والاغتسال بما في ذلك العنايةُ بتنظيف الفم والابتعاد عن أكل الثوم والبصل وغيرهما من المأكولات ذات الرائحة غير المستحبة ولبسُ الثيابِ الجديدةِ أو النظيفةِ على الأقل والتطيبُ بشيء من العطر.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **(إنّ هذا يومُ عيد جَعَلَه الله للمسلمين، فمن جاء الجمعة فليغتسلْ، وإن كان طِيبٌ فَلْيَمَسَّ منه. وعليكم بالسواك).**

وفي الحديث الذي ترويه السيدة عائشة رضي الله عنها يقول رسول الله ﷺ في إحدى خطبه:

(ما على أحدكم إنْ وَجَدَ سعة أن يتّخذ ثو بين لجمعته سوى ثوبي مهنته)

فإذا نودي للصلاة يتوجه المسلم إلى جامع حيه مصطحباً صبيانه المميزين كما ذكرنا مبكراً في ذلك قَدْر إمكانه ماشياً على قدميه فإذا وَصَلَ الجامع دخله بالسكينة والهدوء والوقار وَجَلَسَ حيث ينتهي به المجلس دون أن يتخطى رقابَ الناس، فقد رَوَىٰ عبدُالله بنُ بُسْرٍ رضي الله عنه قال: جاء رجل يتخطى رقابَ الناس والنبيُّ ﷺ يخطب فقال له النبي: (إجلس فقد آذيت وآنَيْت) أي أخَّرت مجيئك.

فإذا صَعِد الإمام إلى المنبر عليه أن يُصْغِي إلى الخطبة بكل جوارحه ولا ينشغل عن ذلك بكلامٍ أو حركة أو غيرِ ذلك وأَنْ يَعْقِد العزم في نفسه على الالتزام بما يوجِّهُ إليه الإمام من صالح الأعمال والابتعادِ عمّا يحذر منه من المعاصي والشرور والآثام. ثم يَقِفُ وراء الإمام عند إقامة الصلاة بفكر حاضر مع الله سبحانه وتعالى، وقلبٍ خاشع، وفؤاد يسأل الله القبولَ والمغفرة والثبات على الحق.

فإذا قضِيَت الصلاة، فإن المصلي ينتشرُ في الأرض ويبتغي من فضل الله ويذكر الله تعالى في كل أحواله وأموره، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿فإذا قضيتِ الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾.

وقد كان الصحابي الجليل عِراك بنُ مالك رضي الله عنه إذا صلى الجمعة انصَرف فَوَقَف على بابِ المسجد فقال: اللهم إني أجبتُ دعوتَك، وصلّيتُ فريضتَك، وانتشرتُ كما أمرتني، فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين.

أيها الإخوة والأخوات:

إن هذا المصلي يومَ الجمعة الذي لبّى نداء ربه، وسمع خطبة إمامه فوعاها، وصلى فريضة ربه فأتم ركوعها وسجودها وخشوعها حريٌّ به أن ينال

مغفرة الله سبحانه وتعالى وفضلَه فقد قال رسول الله ﷺ في الحديث الذي يرويه أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه ويقول فيه: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(من اغتسل يومَ الجمعة ومسّ من طيب أهله إن كان عنده، ولبس من أحسنِ ثيابه ثم خرج حتى يأتي المسجد فيركع إن بدا له، ولم يؤذ أحداً ثم أنصت إذا خرج إمامُه حتى يصلي كانت كفّارةً لما بينها وبين الجمعة الأخرى).

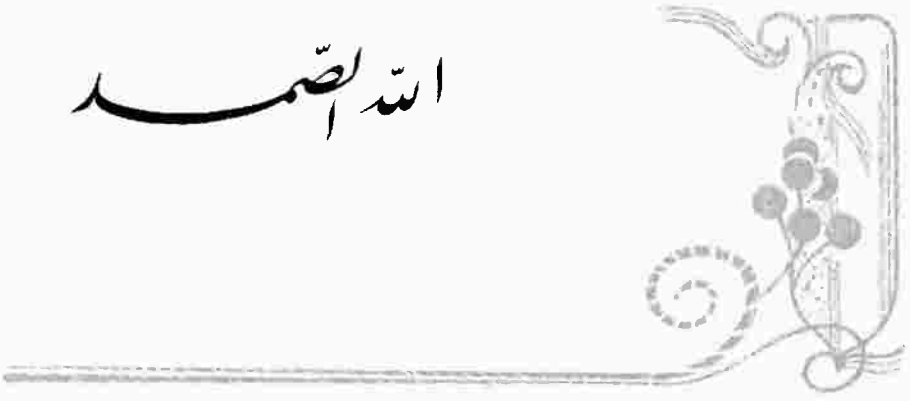

وقفتنا هذا اليوم أيها الإخوة والأخوات ستكون مع سورة الإخلاص، هذه السورة المكية التي لم يتعدَّ مبناها بضع عَشْرةَ كلمة ولكنّها استوعبت أعظم مبدأٍ من مبادىء الإسلام وهو توحيد الله عزّ وجلّ وحملت كلماتُها وعباراتُها الجامعةُ المانعةُ أهمّ صفاته وأسمائه سبحانه وتعالى. فقد روى الإمام أحمد رحمه الله بإسناده عن أنسٍ عن أبي العالية عن أبيّ بن كعب أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: يا محمد إنسِب لنا ربَّك ـ أي صف لنا ربّك ـ فأَنْزَلَ الله تعالى ﴿**قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كُفُواً أحد**﴾.

وقد ورد عن رسول الله ﷺ أحاديثُ كثيرة تبين قدر هذه السورة، وفَضْلَها، وأهميتها،

من ذلك أنها تعدل ثلث القرآن؛

فقد روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: (**أَيَعْجِزُ أحدكم أن يقرأ ثلثَ القرآن في ليلة ؟**) **فشَقَّ ذلك عليهم وقالوا: أَيُّنا يُطيق ذلك يا رسول الله ؟ فقال: (الله الواحدُ الصمد ثلثُ القرآن).**

ورَوَى عبدُالله بنُ عمرو رضي الله عنه أن أبا أيوبٍ الأنصاري رضي الله

عنه كان في مجلس وهو يقول: ألا يستطيع أحدُكم أن يقوم بثلث القرآن كلَّ ليلة؟ فقالوا: وهل يستطيع ذلك أحد؟ قال: فإن (قل هو الله أحد) ثلثُ القرآن. قال: فجاء النبيُّ ﷺ وهو يَسْمَعُ أبا أيوب، فقال عليه الصلاة والسلام: صَدَقَ أبو أيوب.

ومن فضائل هذه السورة سورة (الإخلاص) أنّ الله سبحانه وتعالى يُحِبُّ مَنْ يُكثِرُ قراءتها في الصلاة، فقد روت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن رسولَ ﷺ بَعَثَ رجلا على سريّة وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختِمُ بقل هو الله أحد. فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي عليه الصلاة والسلام، فقال: (سلوه لأيّ شيء يَصْنَعُ ذلك؟) فسألوه فقال: لأنها صفةُ الرحمن وأنا أحبُّ أَنْ أقرأ بها. فقال النبي ﷺ: (أخبروه أنّ الله تعالى يحبُّه).

ومن مزايا هذه السورة العظيمة كذلك أَنَّ من كرّر قراءتها في صلاته محبةً لها أَدخَلَه الله الجنّة؛ فقد روى أنسٌ رضي الله عنه أنه كان رجلٌ من الأنصار يَؤُمُّهم في مسجد قُباء فكان كلّما افْتَتَح سورةً يَقْرَأُ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح بقل هو الله أحد حتى يَفْرَغَ منها ثم كان يقرأُ سورَةَ أخرى معها. وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلَّمَهُ أصحابُه فقالوا: إنك تَفْتَتِح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تُجْزِئُك حتى تقرأ بالأخرى. فإما أَنْ تقرأ بها وإمّا أَنْ تَدَعَها وتقرأ بأخرى. فقال: ما أنا بتاركها، إنْ أحببتم أن أؤمَّكم بذلِك فعلت، وإن كرهتم تركتكم. وكانوا يَرَوْنَ أنّه مِنْ أفضَلِهم، وكرِهوا أن يَؤُمَّهم غيرُه. فلما أتاهُمُ النبيُّ عليه الصلاة والسلام أخبروه الخبر. فقال عليه الصلاة والسلام: (يا فلان، ما يَمْنَعُك أن تفعَلَ ما يأمُرُكَ به أصحابُك؟ وما حَمَلَكَ على لزومِ هذه السورة في كلِّ ركعة؟) قال: إني أُحِبُّها. فقال عليه الصلاة والسلام: (حُبُّك إياها أدخلك الجنّة).

وروى جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: **قال رسول الله ﷺ: (ثلاثٌ**

من جاء بهنّ مع الإيمان دخل من أي أبواب الجنّة شاء وزوِّجَ من الحور العين حيث شاء؛ من عفا عن قاتله، وأدّى ديناً خَفِيا، وقَرَأَ في دُبُرِ كلّ صلاة مكتوبة عَشْرَ مراتٍ قل هو الله أحد) فقال أبو بكر رضي الله عنه: وإحداهنّ يا رسولَ الله، فقال عليه الصلاة والسلام: أو إحداهن.

وروى سعيد بن المسيب أن نبيّ الله ﷺ قال: **(مَنْ قرأ قل هو الله أحد عَشْرَ مرات بَنَى الله له قصراً في الجنة) فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إذَن نُكثر قصورنا. فقال رسول الله ﷺ: (الله أوسعُ من ذلك).**

ومن مزايا سورة الإخلاص أيها الإخوة والأخوات أن رسول الله ﷺ كان يوصي أصحابه رضوان الله عليهم بقراءتها وقراءة المعوِّذتين معها، عند الشدائد وعند الحاجات؛ فقد رَوَى معاذُ بن عبدالله عن أبيه رضي الله عنهما قال: أصابنا عَطَشٌ وظلمة فانتظرنا رسولَ الله ﷺ يُصلي بنا، فأخذ بيدي فقال: (قل) فَسَكَتُّ. قال: (قل). قلت: ما أقول؟ قال: (قل هو الله أحد والمعوّذتين حين تُمْسِي وحين تُصْبِحُ ثلاثاً تكفك، كلَّ يوم مرتين) وفي رواية أخرى (تكفِك كلَّ شيء).

ومن فضائل هذه السورة وبركاتها أنها تَرْفَعُ منزلة من يقرؤها في كل أحواله عند الله سبحانه وتعالى فتحتفي به الملائكة عند موته وتصلي على جنازته الألوف المؤلفة منهم؛ فَعَن أنسٍ رضي الله عنه قال: نَزَلَ جبريل على النبي ﷺ وسَلَّم فقال: مات معاويةُ بن معاوية الليثي فتُحِبُّ أن تصلي عليه؟ فقال النبي عليه السلام: نعم. فَضَرَبَ جبريل بجناحه الأرض فلم تَبْقَ شَجَرَةٌ ولا أكمة إلّا تضعضعت، فَرُفِعَ سريره، فنظر ـ الرسول عليه الصلاة والسلام ـ إليه فكَبّر عليه، وخَلْفَهُ صفّان من الملائكة في كلّ صفٍ سبعون ألف مَلَك. فقال النبي ﷺ: (يا جبريل بمَ نال هذه المنزلة من الله تعالى؟) قال: بِحبِّه قل هو الله أحد وقراءته إياها ذاهباً وجائياً، قائماً وقاعداً وعلى كل حال.

كذلك فقد دلنا رسول الله ﷺ إلى فضل الدعاء بها وَوَزْنِ ذلك عند الله عزّ وجل؛ فقد رَوَى عبدالله بنُ بريدة عن أبيه رضي الله عنهما أنه دخل مع رسولِ الله ﷺ المسجد فإذا رجلٌ يصلي يدعو يقول: اللهم إنّي أسألك بأنّي أشهدُ أن لا إله إلاّ أنت الأحدُ الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. فقال ـ النبي عليه الصلاة والسلام ـ (والذي نفسي بيده لقد سألَهُ باسمه الأعظم الذي إذا سُئِل به أعطى، وإذا دُعِي به أجاب).

وقد ورد أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يستشفي بسورة الإخلاص والمعوّذتين ويستحفِظُ بهما جَسَدَه الشريف كلما أوى إلى فراشه، فقد روى البخاريّ عن عائشة رضي الله عنها (أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كلَّ ليلة جَمَعَ كفيه ثم نفث فيهما وقرأ فيهما قل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس ثم يَمْسَحُ بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسِهِ ووجهه وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات).

وأخيراً وليس آخراً فقد أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام وهو الصادق المصدوق أنّ سورةَ الإخلاص والمعوّذتين خيرُ ثلاث سور أنزلت في القرآن العظيم وفي الكتب السماوية المُنْزلةِ قبله، فقد روى الإمام أحمد عن الصحابي الجليل عُقبةَ بنِ عامر أنه قال: لقيت رسولَ الله فابتدأته فأخذت بيده فقلت يا رسولَ الله بِمَ نجاةُ المؤمن؟ قال: (يا عقبةُ أَخْرِسْ لِسانَك، وَلْيَسَعْكَ بيتُك، وابك على خطيئتك). قال ثم لقيني رسول الله ﷺ فابتدأني فأَخَذَ بيدي فقال: (يا عقبةُ بنَ عامر. ألا أُعَلِّمُكَ خيرَ ثلاثِ سور أُنزلت في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن العظيم) قال: قلت بلى جعلني الله فداك. قال فَأَقْرَأني قل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس. ثم قال: (يا عقبةُ لا تَنْسَهُنّ. ولا تَبِتْ ليلةً حتى تَقْرأَهُنّ). قال: فما نسيتُهُنّ. وما بتُّ ليلةً قطّ حتى أقرأهنّ.

قال عقبة: ثم لقيت رسولَ الله ﷺ فابتدأتُه فَأَخَذْتُ بيده فقلت: يا رسولَ

الله أخبرني بفواضل الأعمال. فقال؛ (يا عُقبة صِلْ مَنْ قطعك، وأَعْطِ مَنْ حَرَمَك، وأَعْرِضْ عمن ظَلَمك).

أما معنى (قل هو الله أحد) فيقول ابن كثير رحمه الله: يعني هو الواحد الأحد الذي لا نظيرَ له ولا وزير ولا نديد ولا شبيه ولا عديل. ولا يُطْلَقُ هذا اللفظ على أحدٍ في الإثبات إلاّ على الله عزّ وجلّ لأنه الكاملُ في جميعِ صفاتِهِ وأفعاله.

وقولُه تَبارك وتعالى: ﴿**الله الصَّمَد**﴾ يعني الذي يَصْمُدُ إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (**الصَّمَد**) **هو السيدُ الذي قد كَمُلَ في سؤددِه، والشريفُ الذي قد كَمُلَ في شرفه، والعظيم الذي قد كَمُلَ في عَظَمته، والحليم الذي قد كَمُلَ في حلمه، والعليم الذي قد كَمُلَ في علمه، والحكيم الذي قد كَمُلَ في حكمته، وهو الذي قد كَمُلَ في أنواع الشرف والسؤدُدْ، وهو الله سبحانه هذه صفته، لا تنبغي إلاّ له، ليس له كُفْء، وليس كمثله شيء سبحان الله الواحدِ القهار.**

وقوله تعالى: ﴿**لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد**﴾ **أي ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة.** قال مجاهد (ولم يكن له كُفُوا أحد) يعني لا صاحبة له وهذا كما قال تعالى: ﴿بديعُ السماوات والأرض أَنّى يكونُ له ولدٌ ولم تكنْ له صاحبةٌ، وخَلق كلَّ شيء، وهو بكلِ شيءٍ عليم﴾[1] أي هو مالِكُ كلّ شيء وخالقُه فكيف يكون له مِنْ خلقه نظيرٌ يساميه أو قريبٌ يدانيه تعالى وتَقَدّسَ وتنزه؛ وقال الله تعالى: ﴿وقالوا اتَّخذ الرحمنُ وَلَدا. لقد جئتم شيئاً إدّا. ـ أي لقد افتريتم افتراء عظيماً كبيرا ـ تكادُ السمواتُ يَتفَطَّرْنَ مِنْهُ وتَنْشَقُّ الأرضُ وتَخِرُّ الجبالُ هدّا. أنْ دَعَوْا للرحمنِ ولدا. وما يَنْبَغي للرحمنِ أَنْ يَتَّخِذَ ولدا. إنْ كلُّ مَنْ في السمواتِ والأرضِ إلاّ آتي الرحمنِ عَبْدا. لقد أحصاهم وَعَدّهم عَدّا.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٠١.

وكلُّهم آتِيه يومَ القيامة فردا﴾[1].

وبعد، أرأيتم أيها الإخوة والأخوات إلى عظمة هذه السورة وفضلها وقَدْرِها وبركاتها في الدنيا والآخرة، ولا عجب في ذلك، فهي سورة الإخلاص لله في عبادته وتوحيده وتقديس أسمائه وصفاته وتنزيهه عن الوالد والولد والصاحبة، وكلِّ شبيه أو نظير أو نديد آخر.

فلتكن هذه السورة سورةُ الإخلاص شعارَنا، وتلاوتَنا في صلاتنا وذِكْرَنا في قيامنا وقعودنا وغدونا ورواحنا وحركاتنا وسكناتنا ندعو بها ربنا، ونَدْخُلُ بها إلى بيوتنا، ونستشفي بها وبالمعوّذتين من أمراض أبدائنا وأدواء قلوبنا. ونصحبها إلى مضاجعنا، ونستعصم ببركتها من شدائد الدنيا وكروب الحياة، لتكون لنا نوراً يسعى بين أيدينا وبأيماننا عندما نتوجه إلى لقاء الله سبحانه وتعالى.

---

(١) سورة مريم: الآية ٨٨ ـ ٩٥.

وظن أنه الفراق

يقول الله عز وجلّ في كتابه العزيز: ﴿أينما تكونوا يدركْكُمُ الموتُ ولو كنتم في بروجٍ مشيدة﴾[1].

ويقول جلّ جلاله: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد، إذ يتلقّى المتلقِّيان عن اليمينِ وعن الشمالِ قعيد. ما يلفِظ من قولٍ إلّا لديه رقيبٌ عتيد. وجاءت سكرةُ الموت بالحق ذلك ما كنتَ منه تحيد. ونُفِخَ في الصور ذلكَ يوم الوعيد. وجاءت كلُّ نفسٍ معها سائقٌ وشهيد. لقد كُنْتَ في غفلةٍ من هذا فكشفنا عنك غِطاءك فبصرُكَ اليومَ حديد﴾[2].

ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿كلا إذا بلغتِ التراقيَ وقيل مَنْ راق. وظنّ أنّه الفراق. والتفت الساق بالساق. إلى ربّك يومئذ المساق﴾[3].

وقال رسول الله ﷺ لعبدالله بن عمر رضي الله عنهما:

---

(١) سورة النساء: الآية ٧٨.

(٢) سورة ق: الآية ١٦ ـ ٢٢.

(٣) سورة القيامة: الآية ٢٦ ـ ٣٠.

(إذا أصبحتَ فلا تحدّث نفسَك بالمساء وإذا أمسيتَ فلا تحدّثْ نفسَك بالصباح. وخذ من حياتك لموتِك ومن صحتِك لِسَقَمِك. فإنّك يا عبدَالله لا تدري ما اسمُك غداً).

إخوتي أخواتي

وقفتنا هذا اليوم عند الموت، عند النهاية الحتمية لكلّ حيّ، عند هذه الحقيقة الكبرى التي ننساها في كثير من الأحيان فننشغلُ عنها اغتراراً بدَفْقِ الحياة، أو قوةِ الشباب، أو كمالِ الصحة، أو توفر الأموال والمُتَعِ والملذات.

لقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يجعلَ هذه الحقيقة اليقينية نهايةً لحياة جميع المخلوقات بما في ذلك الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام، والملائكة المقربون، والمصلحون والمفسدون، وأعيانُ الناس وعوامُّهم، وأغنياؤُهم وفقراؤُهم، علماؤهم وجُهّالهم زعماؤهم وسَوْقتُهم، رجالُهم ونساؤهم.

وشاء الله كذلك أن نرى حقيقة الموت في كثير من أهلنا وجيراننا، وأصحابنا وأترابنا، وأحبابنا وأعدائنا، وأن نُخْبَرَ عنها الخبر الذي لا شك فيه فيمن سبقنا من الأجيال والأمم والشعوب فيما مضى من حُقَبِ التاريخ...

فأين الآباء والأجداد والأسلاف ؟

أين بنو عثمان ؟ وأين بنو العباس ؟ وأين بنو أمية ؟ وأين الخلفاء الراشدون ؟

أين امرأة نوح وامرأة لوط اللتان ضربهما الله مثلاً للذين كفروا ؟

وأين امرأة فرعون ومريم ابنةُ عِمران اللتان ضربهما الله مثلاً للذين آمنوا ؟

أين كسرى، كسرى الملوك أنو شروانَ أَمْ أين قَبْلَهُ سابورُ

وبنـــو الأصفـــرِ الـعـــظامُ ملوكُ الـــرومِ لم يبقَ منهمُ مـذكـــور
وأخـــو الـحِصـن إذ بـنـــاه وإذْ دجلَةُ تُجبى إلـيـــه والخـابـــور
شـــاده مـــرمـــرا وجـلَّلَهُ كِلسـاً فـــللطيـــرِ فـــي ذراهُ وُكـــور
لم يَهَبْـــهُ رَيْبُ المنـــون فبـــاد المُلك عنـــه، فبـابُـــهُ مهجـــور

والموت بعد ذلك أيها الإخوة والأخوات هو الولادةُ الحقيقية للإنسان.

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان في كبد فولدته أمه، بعد أن حملته في بطنها تسعةَ أشهر، ليعيش على هذه الأرض ما شاء الله له أن يعيش عدداً محدداً من اللحظاتِ أو الساعات أو الأيام أو الشهور أو الأعوام، فَيعْمُرَ الأرض صلاحاً أو يَعيث فيها فساداً، ويَنْعَمَ بالإيمان بالله سبحانه وتعالى، أو يشقى في عبادة نفسه وشهواته وشيطانه...

ويَحين الموت بل تحينُ لحظة الولادة الحقيقية للإنسان ولادةِ روحه بعد أن تحملها جَسَدُه مدةَ عَيْشِهِ على الأرض، **وتنطلق الروح بهذه الولادة إلى العالم الآخر إلى عالمِ الخلود، حيث لا موتَ ولا فَناء**، بل نعيمٌ مقيم في جنّةٍ عرضها السمواتُ والأرض أُعِدَّتْ للمتقين، أو شقاءٌ دائم وعذاب مقيم ـ والعياذ بالله ـ في جهنّم في سَقَر ﴿وما أدراك ما سقر. لا تُبقي ولا تَذَر. لوّاحةٌ للبشر. عليها تسعةَ عشر﴾[1].

أما لماذا استقرّ هؤلاء في جهنّم ؟ ولماذا هوت أرواحُهم إلى قيعانِها ووديانها واكتوت بحرِّها ونيرانها فقد أنطقهم الحقُّ سبحانه وتعالى بالجواب على ذلك: ﴿قالوا لم نكُ من المصلين، ولم نكُ نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نُكذّب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين﴾[2].

فلتتذكر أيها الإخوة والأخوات هذه الحقيقة، حقيقةَ الموت، ولنذكُرْها

---

(١) سورة المدثر: الآية ٢٧ ـ ٣٠

(٢) سورة المدثر: الآية ٤٣ ـ ٤٧.

دائماً. إننا سنلاقيها لا محالة. ولنستعدَّ إلى ما بعدها.

لا يدري أحدنا متى يَنْزِلُ مَلَكُ الموتِ بساحته فهنيئاً لمن كان مستعداً لمواجهة هذا الموقف بقلبٍ سليم، وعملٍ صالح، وشوقٍ ولهفة إلى لقاء الرحمن الرحيم، وتُعْساً وشقاءً لمن تلهّى بُزْخُرفِ الدنيا وزينتها، وغَفَلَ عن ذكر ربه وطاعته، وتمنّى على الله الأماني، ولنستمعْ إلى العزيزِ الجبار جلّ وعلا ينادي عباده المؤمنين مُنبِّهاً ومحذّراً:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُلْهِكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله. ومن يفعلْ ذلك فأولئك هم الخاسرون. وأنفقوا مما رزقناكم من قَبْلِ أن يأتيَ أحَدَكم الموتُ فيقولَ ربِّ لولا أخَرتني إلى أَجَلٍ قريبٍ فأصَّدَّقَ وأكُنْ من الصالحين. ولن يؤخِّر الله نَفْساً إذا جاء أَجَلُها والله خبيرٌ بما تعملون﴾[1].

● **دخل المزني على أستاذه الإمام الشافعي رحمةُ الله عليهما في مرضه الذي توفي فيه** فقال له: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ قال الشافعّي: أصبحت من الدنيا راحلاً وللإخوان مفارقاً ولسوء عملي ملاقياً ولكأس المنية شارباً، وعلى الله تعالى وارداً، ولا أدري أروحي تصير إلى الجنّة فأهنيها، أم إلى النار فأعزيها؟ ثم أنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جَعَلْت الرجا مني لعفوك سُلّما
تعاظمني ذنبي فلما قَرَنْتُهُ ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فللهِ درُّ العارفِ الندب إنه ... تَسِحُّ لفَرْطِ الوجدِ أجفانُه دما
يُقيم إذا ما الليلُ مَدَّ ظلامَهُ ... على نفسه من شدة الخوف مأتما
فصيحاً إذا ما كان في ذكر ربّه ... وفيما سواه في الورى كان مُعْجِما
ويذكر أياماً مضت من شبابه ... وما كان فيها بالجهالةِ أجرما
فصار قرينَ الهمّ طولَ نهاره ... ويخدِم مولاه إذا الليل أظلما

---

(١) سورة المنافقون: الآية ٩ ـ ١١.

يقول حبيبي أنت سُؤْلي وبغيتي كفى بك للراجين سُؤْلاً ومغنما
أَلَسْتَ الـذي غَـذَّيْتني وكَفَيْتَني ومـا زلْتَ منّانـاً عليّ ومُنْعِمـا
عسى يا عظيم العفو تغْفِر زَلَّتي وتَسْتُـرُ أوزاري وما قـد تَقَدّمـا

● ولما حضرت معاويةَ بنَ أبي سفيان رضي الله عنهما الوفاة قال: أقعدوني، فأُقعد، فجَعَلَ معاويةُ يسبّحُ الله تعالى ويذكره. ثم بكى وقال: **تَذكُرَ ربَّك يا معاويةُ بعد الهَرَمِ والانحطاط ! ألا كان هذا وغُصْنُ الشبابِ نَضِرٌ ريّان!** ثم بكى حتى علا بكاؤه وقال: **يا رب ارحم الشيخ العاصي ذا القلبِ القاسي. اللهم أَقِلِ العَثْرة واغفرِ الزلّة وَعُدْ بحلمك على من لا يرجو غيرَك، ولا يثقُ بأحد سواك.**

● وقيل لعبد الملك بن مروان رحمه الله في مرضه الذي مات فيه: كيف تَجِدُكَ يا أمير المؤمنين، فقال: **أجدني كما قال الله تعالى: ﴿ولقد جئتمونا فُرادى كما خلقناكم أولَ مرة، وتَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكم وراءَ ظهوركم﴾**[1] **ثم أنشأ يقول:**

إن تـنـاقِشْ يكـن نقـاشُـك يـا ربِّ عـذاباً لا طـوق لي بالعـذاب
أو تـسـامـحْ فـأنت ربٌّ عـفـوٌّ عـن مسيءٍ ذنـوبـه كـالتـراب

● وعندما حضرتِ الوفاةُ المأمون رحمه الله فَرَشَ رماداً واضطجع عليه، وصار يقول؛ **يا مَنْ لا يزول مُلْكُه ارحم مَنْ قد زال مُلْكه.**

● وقال سعيد بن المسيب رحمه الله:

لما احتُضِر أبو بكر الصديق رضي الله عنه أتاه ناسٌ من الصحابة رضي الله عنهم فقالوا: يا خليفة رسولِ الله ﷺ زوّدنا وأَوْصنا فقال أبو بكر رضي الله عنه:

مَنْ قال هؤلاء الكلمات ثمّ مات جَعَلَ الله روحَه في الأفق المبين. قالوا:

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٩٤.

وما الأفُقُ المبين ؟ قال: قاع بين يدي العرش فيه رياضُ الله وأنهار وأشجار تغشاه كلَّ يوم مائةُ رحمة. فمن قال هذا القول جَعَلَ الله روحه في هذا المكان:

(اللهم إنّك ابتدأتَ الخَلْقَ مِنْ غير حاجةٍ بك إليهم، ثم جعلتَهم فريقين فريقاً للنعيم وفريقاً للسعير، فاجعلني للنعيم ولا تجعلْني للسعير. اللهم إنّك خَلَقْتَ الخَلْق فِرَقا وميَّزْتَهم قبلَ أن تَخْلُقَهم فجعلتَ منهم شقياً وسعيداً، وغوياً ورشيداً فلا تُشْقِني بمعاصيك.

اللهم إنك عَلِمْتَ ما تكسِبُ كلُّ نفسٍ قَبْلَ أن تَخْلُقَها فلا مَحِيصَ لها مما عَلِمْت، فاجعلني مِمَّنْ تستعمله في طاعتك.

اللهم إنّ أحداً لا يشاءُ حتى تشاء، فاجعل مشيئتَك أن أشاءَ ما يقرّبني إليك.

اللهم إنّك قد قدّرت حركاتِ العباد فلا يَتَحَرَّكُ شيءٌ إلا بإذنك، فاجعل حركاتي في تقواك.

اللهم إنك خَلَقْتَ الخير والشر وجَعَلْتَ لكلّ واحدٍ منهما عاملاً يعمل به، فاجعلْني من خير القِسْمين.

اللهم إنّك خَلَقْتَ الجنَّةَ والنّار وجَعَلْتَ لكلِّ واحدةٍ منهما أهلاً فاجعلني من سكان جنتك.

اللهم إنك أردت بقومٍ الضلال وضيَّقتَ به صدورهم، فاشرح صدري للإيمان وزيّنْهُ في قلبي.

اللهم إنّك دبَّرْتَ الأمور وجَعَلْتَ مصيرَها إليك، فَأَحْيني بعد الموت حياةً طيبة، وقرّبْني إليك زلفى.

اللهم مَنْ أصبح وأمسى ثقتُه ورجاؤه غيرك فأنت ثقتي ورجائي ولا حولَ ولا قوة إلا بالله).

المؤلف في سطور

- اسمه الكامل محمد زهير بن عبد الوهاب بن محمد صالح الأيوبي.
- ولد في مدينة دمشق يوم الميلاد أي يوم الخامس والعشرين من شهر كانون الأول (ديسمبر) من عام ١٩٣٩م.
- ينتسب أبوه (عبد الوهاب) رحمه الله إلى صلاح الدين الأيوبي رحمه الله وتنتمي أمه (فخرية بنت أحمد شيخو) حفظها الله إلى العشيرة (الكيكية) كبرى عشائر الأكراد.
- كانت نشأته الأولى في سورية ثم ارتحل منها إلى المملكة العربية السعودية عام ١٩٦٤م. وقد أمر الملك فيصل بن عبد العزيز رحمهما الله بمنحه وزوجته وأولاده الرعوية العربية السعودية في عام ١٩٧٣م (عام ١٣٩٣هـ).
- بدأ مسيرته الواسعة في ميدان الدعوة الإسلامية والإعلام في وقت مبكر من حياته في عدد من جوامع دمشق وكان عمره لا يتجاوز (١٣) ثلاثة عشر عاماً واستمر في ذلك أكثر من (١٠) عشر سنوات.
- بدأ نشاطه الإذاعي في عام ١٩٥٨م وفي عام ١٩٦٠م اختير مذيعاً أول للتلفزيون العربي السوري من بين (٦٥٦) متسابق ومتسابقة (إبان الوحدة بين سورية ومصر).
- في عام ١٩٦١م كلف بالعمل مذيعاً أول في الإذاعة السورية إضافة إلى عمله في التلفزيون.
- بدأ في إعداد وتقديم برنامجه التلفزيوني التوجيهي الجماهيري الأسبوعي الشهير (مجالس الايمان) في عام ١٩٦٢م من دمشق ولأكثر من سنة ونصف ثم استأنف إعداد وتقديم هذا البرنامج من تلفزيون المملكة العربية السعودية عام ١٩٦٥م وكان باكورة البرامج التوجيهية في تلفزيون المملكة واستمر أكثر من (١٥) خمسة عشر عاماً وقد تم تقديم حلقاته من استوديوهات الرياض وجدة والدمام والمدينة المنورة والقصيم وأبها كما سجلت حلقات أخرى من هذا البرنامج في كل من الكويت ودمشق وعمان وبيروت وتونس وغيرها.

- وقد أعد وقدم على غراره برنامجاً آخر بعنوان (الندرة) من تلفزيون الإمارات العربية المتحدة من الشارقة مع افتتاحه في مطلع عام ١٩٨٩م وقد شارك في هذين البرنامجين (مجالس الايمان) و(الندوة). كبار رجال الفكر والدعوة الإسلامية ورجال القضاء والتربية والتعليم والإعلام وأساتذة الجامعات في المملكة العربية السعودية ودولة الإمارات العربية المتحدة وبلاد الشام ومصر والسودان والمغرب ودول الخليج واليمن وغيره من أقطار العالم العربي والعالم الإسلامي.

- في عام ١٩٦٨م كلف بالعمل مديراً لبرامج الإذاعة في الرياض فمشرفاً على الإذاعة ثم أصبح أول مدير لهذه الإذاعة في عام ١٩٧٣م وبقي في هذا الموقع أكثر من (٦) سنوات. وقد كلف في أثناء هذه الفترة ولستة أشهر بالإشراف العام على إذاعة جدة وإذاعة نداء الإسلام من مكة المكرمة. كما كلف ولمدة عام بعمل مدير عام إذاعات المملكة العربية السعودية في كل من الرياض وجدة ومكة المكرمة.

- أعد وقدم عدداً من البرامج الإذاعية المهمة الهادفة منها برنامج (تحية الإفطار) وبرنامج (روح وريحان)

- في عام ١٩٧٩م ترك العمل في الإذاعة وعمل مديراً للإعلام الخارجي ثم استقال من وزارة الإعلام ثم سافر إلى لندن فأسس وأصدر بالتعاون مع الشركة السعودية للأبحاث والتسويق مجلة (المسلمون) وعمل رئيساً لتحريرها بين عام ١٩٨٠م و١٩٨١م طيلة فترة صدورها الأول مجلة أسبوعية إسلامية رائدة بأسلوبها وموضوعاتها وشكلها وأبوابها.

- بعد ذلك عاد إلى الرياض ليستأنف نشاطه الحر في ميدان الإعلام فأنتج مجموعة جديدة من حلقات البرنامج التلفزيوني (مجالس الإيمان) وأنتج برنامج (في هدأة السحر) كما قام في عام ١٩٨٣م بإنتاج مسلسل تاريخي إسلامي تلفزيوني صور فيه مواقف خالدة من حياة عدد من الشخصيات الإسلامية البارزة من طبقة التابعين تحت إسم (صور من حياة التابعين) استقى مادته التاريخية بصورة أساسية من كتابات الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا رحمة الله عليه في هذا الصدد. وقد ترك هذا المسلسل صدىً واسعاً لدى جميع من شاهدوه من على شاشة تلفزيون المملكة وتلفزيون سورية وتلفزيون الإمارات العربية المتحدة من أبو ظبي ومن دبي.

- متزوج من حفيدة الزعيم الكردي الدمشقي المعروف عمر آغا شمدين عليه رحمة الله وله سبعة أولاد أربعة بنين وثلاث بنات وهم: أحمد المجد وخلود وفخر وأحمد وسمحة وعبد الوهاب وعمر.